ثانيا: الفنون النثرية

8-9-المقالة

تعريف المقالة:

المقالة مصدر ميمي من الفعل قال الذي مصدره الصريح القول، والمقالة فن من فنون النثر وهي من أوسع هذه الفنون وأقدرها على استيعاب شتى الموضوعات، فهي تمتاز بالتنوع من حيث الموضوع، ثم إن طبيعة الأسلوب وطريقة التعبير تختلف مستوياتها باختلاف الموضوع المطروح و باختلاف الكتاب، «فالمقالة ليست إلا تعبيرا عن النفس وتنفيسا عنها، فهي في النثر تشبه النوع الغنائي في الشعر، ولذلك كان كاتب المقالة واسع التفكير أكثر من أي كاتب آخر، فله حرية واسعة غير محدودة في أسلوبه، ومن الصعب أن نجد موضوعا ليس صالحا لأن يتناوله كاتب المقالة».

خصائصها:

وعلى هذا الأساس كان هذا الفن النثري أكثر تحررا من بين أنواع الكتابة النثرية، بل إنه يكاد يهيمن عليها جميعا، ولذلك فإن كاتب المقالة يقلب موضوعه أنّى يشاء، ويتصرف في أسلوبه وطريقة تعبيره كيفما يريد، فهو بذلك يعكس ملامح شخصيته، ويصل إلى عقل القارئ وقلبه.

«فالمقالة تقتبس بعض عناصرها من الفنون الأدبية الأخرى، فهي مثلا تأخذ من المسرحية عنصر الحوار، ومن القصة طريقة القص، ووصف المناظر والشخوص، ومن القصيدة الشعرية نزعتها الغنائية ونفسها الشعري، وقد تستعير في بعض أشكالها بعض خصائص المقامة العربية، وفي بعض أساليبها أسلوب الخطبة». ، ويرى بعض الكتاب أن ما كان يكتبه عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع و الجاحظ في أواخر العصر الأموي وبدايات العصر العباسي شبيه بالمقالة، في حين يذهب بعضهم إلى أن المقالة فن حديث، «المقالة صناعة العصر الحديث ظهرت بظهور المطبعة والصحافة » ، والعرب لم يعرفوا الطباعة ونشر الصحف إلا عن طريق الغرب بعد الحملة الفرنسية على مصر(1798)، «وقد كان مولد الصحافة العربية في هذه الحقبة من أكبر العوامل التي ساعدت على تطوير النثر وتحريره ولو قليلا من قيود السجع وجمود التراكيب».

نماذج من المقالة:

لعل من أمثلة المقالة في الأدب الحديث ما كتبه **رفاعة رافع الطهطاوي**(1801-1873) الذي عهد إليه بإدارة جريدة (روضة المدارس)، وجريدة(الوقائع المصرية) في وقت لاحق، يقول في مدح السعي والعمل وذم البطالة والكسل:«وقدماء المصريين من الأزمان الخالية والقرون البالية يعانون الأعمال العجيبة ويجتهدون في إنجاز الأشغال الغريبة كالأهرام والمسلات العظيمة والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة» ، ثم يتحدث عن تشخيص المصريين للكسل في صورة امرأة :«ولها عند المصريين رسم آخر فيما غبر من الزمان، وهي رسم الكسل على هيئة امرأة عليها علامات البطء والتوان، كأنها تروم أن تتبختر في سيرها الممقوت، وتجر ثوبا من نسج العنكبوت، متكئة على أريكة المجاعة والمخمصة، تمضي جميع أوقاتها في الدعة والاستراحة المقتنصة، ففي عنفوان شبابها واخضرار وغض عود إهابها لا تميل إلى حركة، ولا تعطف على بركة، وفي زمن الكهولة والهرم ترقد على فراش العدم والندم».

فلا يخفى على القارئ أن نص الطهطاوي مازال يعاني من وطأة الأسجاع، واللملمة والجمع، والبعد عن التركيز والإيجاز، فهو يضرب الأمثلة لإبراز معانيه والإقناع بأفكاره، بل إنه كثيرا ما يستعين بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبالشعر وأقوال الخلفاء والعلماء للتدليل على ما يذهب إليه.

ثم خطت المقالة خطوات إلى الأمام بفضل **جمال الدين الأفغاني** (1838- 1897)، وتلميذه **محمد عبده**(1849- 1905)، مؤسسي(العروة الوثقى)، واللذين عاصرا البارودي ومرحلة البعث والإحياء والثورة العرابية (1881)، ومن كتاب هذه المرحلة إبراهيم المويلحي، وأديب إسحاق، وسليم النقاش، وعبد الرحمان الكواكبي، فقد تحلل هؤلاء الكتاب من قيود السجع إلى حد بعيد، واهتمت كتاباتهم بقضايا الشعب ، ولعل مما يحسن إيراده هنا نموذجا **لعبد الرحمان الكواكبي**(1849- 1902) الذي ساهم في تحرير جريدة(الشهباء)، وأنشأ(الاعتدال) كما حرر في جريدة(المؤيد)، فمن مقالته(الاستبداد والعلم):«إن المستبد يخاف من هؤلاء العلماء العاملين الراشدين المرشدين، لا من العلماء المنافقين أو الذين حفر رؤوسهم محفوظات كثيرة كأنها مكتبات مقفلة؟ كما يبغض المستبد العلم لنتائجه يبغضه

أيضا لذاته لأن للعلم سلطانا أقوى من كل سلطان، فلا بد للمستبد من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علما. ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم عاقل يفوق عليه فكرا، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار الغبي المتصاغر المتملق. وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون)».

عالج الكاتب من خلال هذا المقال قضية سياسية إذ تحدث عن نظام الحكم الفاسد لأن القضية تمس الواقع السوري بل والواقع العربي أيام الحكم العثماني في البلاد العربية الذي ضيق على العلماء والمثقفين، فكان السعيد منهم من استطاع أن يهجر وطنه.

وكتب في مقالته (الاستبداد والتخلص منه) يرسم طريق الخلاص من الاستبداد: «الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف: كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا، نعم، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا، فإذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء، حتى إذا سكنت ثورتها نوعا وقضت وظيفتها في حد المنافقين، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة ».

وفي بدايات القرن العشرين ظهرت المدارس الأدبية والآراء النقدية، كما نشطت المعارك النقدية، فازدهر المقال بفضل كوكبة من الكتاب، وكانت صفحات الجرائد مسرحا له،«ولما لم يكن للمقال ميدان محدد فقد رأيناه يتنوع أنواعا عدة فمقال أدبي، وآخر سياسي وثالث اجتماعي ورابع نقدي...» ، فمن المقالات الأدبية ما كتبه **جبران خليل جبران** في (القشور واللباب): «ما شربت كأسا علقمية إلا كانت ثمالتها عسلا. وما صعدت عقبة حرجة إلا بلغت سهلا أخضر. وما أضعت صديقا في ضباب السماء إلا وجدته في جلاء الفجر.

وكم مرة سترت ألمي وحرقتي برداء التجلد متوهما أن في ذلك الأجر والصلاح، ولكنني لما خلعت الرداء رأيت الألم قد تحول إلى بهجة والحرقة قد انقلبت بردا وسلاما. وكم سرت ورفيقي في عالم الظهور فقلت في نفسي ما أحمقه وما أبلده، غير أنني لم أبلغ عالم السر حتى وجدتني الجائر الظالم وألفيته الحكيم الظريف».

وعرف **طه حسين** بحملاته ونشاطه النقدي ففي كتابه (خصام ونقد) نقرأ له في مقالة (الأدب والحياة) يشرح علاقة الأدب والنقد بالإنسان وبالحياة: «الأدب إنساني إذن والنقد

إنساني أيضا، والأدب يصور حياة الناس والنقد يبين ملاءمة هذا الأدب لأذواقهم أو مخالفته لها، وإذن فلا يكون أدبا حتى يصور حياة الناس، وليس في الأرض أدب إلا وهو يصور حياة أصحابه».

وإذا عرجنا على أدب المقالة في الجزائر، فإنه وإن تأخر ظهور الصحافة بها عن المشرق العربي، إلا أنها سرعان ما ازدهرت بعد الحرب العالمية الثانية لاسيما على أيدي زعماء الحركة الإصلاحية، وفي ظلها نشط فن المقال، وكان مما عالجه قلم **محمد البشير الإبراهيمي** قضية التبشير في الجزائر قائلا: « ولقد كان من المعقول أن يثمر التبشير في القطر الجزائري ويأتي بنتائج أكثر مما يأتي به في الأقطار الأخرى لعدة اعتبارات، أوّلا تقادم عهده. وثانيا صولة الاستعمار الذي يحميه. ثالثا فشوّ الجهل والأمية والفقر في الأمة التي هي فريسة التبشير. رابعا انتشار الطرقية التي هي ظئر التبشير وكافلته والممهدة له حسا ومعنى، وإن جهل هذا قوم فعدوا من حسناتها مقاومة التبشير. خامسا قعود علماء الدين عن المقاومة وسكوتهم عن المعارضة قَبل جمعية العلماء».

ومما دبجه يراع الصحفي الشاعر **محمد السعيد الزاهري** في مقالته بين العرب واليهود قوله: «والحديث عن اضطهاد اليهود أصبح من شعائر الدين عند اليهود، فهم يحفظون جميع المصائب والنكبات التي حلت بهم وبآبائهم الأوّلين وهم يعرفون هذه المحن، ويعرفون أيامها وتواريخها، ويلقنونها أطفالهم الصغار. . . ويعجبني من هذا أن اليهود لا ينسون ما يحل بهم من رزء أو مصاب ولا من يعاملهم بالشر والقوة والأذى، ولعل هذا هو سر احتفاظهم بكيانهم إلى الآن. والعرب على خلاف ذلك، ينسون كثيرا، فكم من محن ونكبات نزلت بهم فنسوها لحينها، ولم يعودوا يذكرونها».

ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإمام **عبد الحميد بن باديس** له الفضل الكبير في إنشاء الصحافة الوطنية والكتابة فيها بدءً بالمنتقد(1925)، ثم الشهاب الجريدة والمجلة(1925- 1939)، فقد «كانت الجمعيات الثقافية وخاصة "جمعية العلماء " والحركة الإصلاحية بوجه عام تكافح هي الأخرى بواسطة المقال الإصلاحي الصرف، ثم بالمقال الأدبي الإصلاحي حين تطورت الثقافة و وجد مناخ أدبي يساعد على هذا الإتجاه ».

وكفاح علماء الإصلاح كان ضد الاحتلال الفرنسي من جهة، وأعداء الداخل من جهة أخرى حيث أن البلاء والكيد الذي تعرضت له جمعية العلماء لم يكن محصورا في الطرقيين فحسب، بل إن الأنكى من ذلك أن يحارب الجمعية رجال من بني جلدتها، هم النواب المسلمون الجزائريون الذين تشرفوا بالنيابة عن الأمة الجزائرية لدى الحكومة الفرنسية، لكن بعض هؤلاء مع الأسف الشديد كانوا أيضا أداة عميلة في أيدي المستعمرين تضاف إلى الطرقية، وكان من اعتداءات هؤلاء أن النائب المالي "غراب معمر" نائب عين البيضاء ألقى خطابا في إدارة الأمور الأهلية بالعاصمة في حشد كبير من المدعوين لاستقبال الوالي العام القادم من فرنسا، حيث طلب في خطابه من الحكومة أن تعامل الجمعية معاملة قاسية شديدة، كما اتهم رجالها بنشر الأحقاد والفساد، والنصب والاحتيال لجمع الأموال وأن مقصدها الإصلاحي التهذيبي للمسلمين الجزائريين ما هو إلا زعم كاذب، فكان أن رد الإمام ابن باديس على ابن غراب معرّضا به: « يقول الغراب أن هذه التعاليم مثيرة للأحقاد والتحزبات ولقد صدق هنا وهو الكذوب، فقد أثارت علينا هذه التعاليم الأحقاد، وأي حقد أعظم من الحقد الذي أكل قلبه وقلْب مثله حتى اعتدى علينا هذا الاعتداء العظيم وافترى علينا هذا الإفك المبين وكيف لا يحقد علينا الجهال الذين يعيشون على الجهل ونحن نحارب الجهل والمتعيشين عليه، وكيف لا يحقد علينا الذين يقولون للناس كونوا عبادا لنا بفنون من لسان المقال ولسان الحال ونحن نقول للناس لا تكونوا عبادا إلا لله».

والجدير بالذكر أن الصحافة باحتضانها فن المقال أكسبته خصائص جديدة كالترسل والوضوح والسرعة والتركيز ، ذلك لأن الجريدة أوالمجلة تفرض على المقالي (كاتب المقال) وقتا لتحرير مقالته وحيزا للكتابة فيه، ثم إن الجريدة والمجلة يقرأها جميع شرائح المجتمع على اختلاف مستوياتهم. وبعد أن ينشر الكاتب كما من المقالات يعمد إلى جمعها وترتيبها لتنشر في شكل كتاب، مثل عيد القلم لعباس محمود العقاد(منشور في الرسالة)، ووحي الرسالة لأحمد حسن الزيات، ووحي القلم لمصطفى صادق الرافعي، وحديث الأربعاء لطه حسين، وعيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي.